صوفي

قصة بقلم منذر الفرا

« مضى ربع ساعة ونحن بانتظارك . أهكذا تعامل السيدات ؟ »

قالت صوفي هذا واستمرت « أعرفك بزوجي » وفاهت باسمه « أقدم لك السيد ... من سورية » فمد يدا صديقة وصافحني بحرارة دهشتني . لحظت صوفي ذلك فقالت « لقد كلمته عن لقائنا هذا الصباح » فنظرت اليه وابتسمت في وجهه المعبر الصارم .

قلت « الواقع اني انتظر منذ ساعتين . وحين وقفت في الشرفة منذ لحظات ، لمحت شبحكما تحت ضوء الشارع الخافت ، فهبطت الدرج بسرعة . لماذا لم تقدما الى النزل ؟ »

فقالت صوفي بعينين ضاحكتين غامزتين « انتبه . وعدتك أمام النزل ، لا داخله » .

« آسف ، أخطأت الفهم اذن . ما رأيكما بفنجان شاي ؟ »

أجابت وهي تشد على يدي « دعنا من الشاي . أعلمني ، ماذا رأيت من بودابست ؟ »

فقلت « الشارع الرئيسي في عقدة المدينة ، بضع مقاه ومطاعم ، مئات الوجوه ، وفرعين أو ثلاثة لمؤسسة ايبوس باحثا عن صوفي ، وبالطبع لم أعثر عليك » .

قالت « كان العمل اليوم شاقا ، ولم أكن في أي مكتب . يا مسكين ، انك لم تر من بودابست شيئا ، رغم جودة الطقس . أعتقد أن مهمتي أمست شاقة . فماذا أريك ؟ خلال ساعات فقط وفي الليل؟»

قلت « اني ممتن لك أن تريني ما تشائين . لقد وهبتني في الحقيقة كل ايناسك ولطفك . وفي النهاية ، فاني أفضل الناس على منجزاتهم ، ونحن معا . ربما لولاك بت في بهو المطار على كرسي. لقد فعلت الكثير . »

فقالت « دعك من هذا . أعلمتك البارحة انها ليست وظيفتي ، انما تطوع . دعنا الان نسرع لتناول الباص والذهاب بدءا الى الحديقة العامة . »

« حسبما ترغبين » .

ذلك أنها ، صوفي ، لم تتوان عن تقديم خدمة لي مساء أمس . كانت أكثر من انسانة ، وماذا أقول ؟ لقد وصلت الى مطار بودابست في الحادية عشرة ليلا . واستمرت اجراءات الجمرك والامن أكثر من نصف ساعة . فلما مثلت امام مكتب الفنادق بردهة المطار الرئيسية ، قالت السيدة العجوز وراء الحاجز « آسفة . ألم تحجز مسبقا ؟ »

قلت « لا . لم أكن على يقين من وصولي بيوم معين . »

فقالت « انه ليس ذنبي . ليس لدي مكان في أي فندق ... وتمهلت لحظات « أترغب درجة معينة ؟ »

« أريد فراشا أقذف اليه في أي مكان . منذ الفجر وأنا انتقل من مطار لاخر . أكاد أموت اعياء . أرجوك أي مكان . أي فراش . »

طأطأت رأسها وقالت « لحظة . » واستدارت نحو قرص الهاتف تديره بسام واضح . ونظرت حولي . كنت الغريب الوحيد . والفراغ يملأ الدنيا ، وأمامي المحفظتان ، ويداي منسلختان ، وأكاد لا أقوى على الوقوف . وقالت أخيرا « لم أجد أي مكان . معذرة . »

وصرخت « ولكنكم منحتموني سمة دخول . ألا يجمل أن تعاملوا الناس كبشر ؟ »

فقالت ببلادة « هدىء من روعك يا سيد . لم أمنحك السمة بنفسي . انها خطيئتك . »

وانعقد لساني . كانت كلماتها سما . وبهت .

عندها برزت صوفي أمامي . صبية هيفاء ، ذات عينين خضراوين حمامتين ، ووجه صبوح ، وقامة مربوعة ، وتكوين شرقي ناعم . ابتسمت وقالت « هل أستطيع مساعدة السيد ؟ سمعت صوتك عاليا فخمنت سوء تفاهم . » فقلت « اني تعب ومنهك وأريد فراشا بأي ثمن ولا أجده . والسيدة لم تعثر على فراش في كل بودابست . يبدو أن الزائر حشرة لا قيمة لها هنا . والا .. » فقاطعتني « عفوا . ماذا تعني ؟ » .

فقلت « منذ نصف ساعة ونبحث عن فراش . وعبثا . بهذا يتلقى زائر لاول وهلة ؟ ويتلقى بوجه غاضب ولامبالاة ثلجية ؟ لكأن السيدة تقول « الى الجحيم بك وبالفنادق ! » » .

فهزت صوفي رأسها مبتسمة « انها ليست مهمتي . لا بد أن السيد ايطالي » .

فقلت « من سورية » .

فصمتت لحظة وعيناها تلوبان . كانت جميلة كالفرحة . كانت وديعة ومشرقة اخر المساء . وكنت أملا وابتهالا . تطلعت الي مرة اخرى وقالت « اطمئن . انها ليست مهمتي ، ولكن عليك بالاناة ، ان سمحت. فقد يكون الزائر ذا قيمة . » ونظرت في عيني مواربة .

فقلت « اعتذر لما قلت . ولكني مرهق ، مرهق لدرجة الشلل ».

فابتسمت ، وأشارت بيدها أن اهدأ . وتمتمت « فهمت ! » ثم التفتت الى السيدة العجوز وكلمتها طويلا ، فأومأت الى السجلات أمامها والى الهاتف بحركات يائسة . ثم قالت صوفي « أعرف نزلا يستعمل في الطوارىء . ساتصل بصاحبته . لكن أركن الى الهدوء أولا » .

وانجزت صوفي الامر في دقائق . كنت منهكا ولكن شيئا بدأ يزهر في أعماقي بحيوية وحشية . وقلت لصوفي « وكيف ستصل الى المدينة ، فالتكسي يكلف غاليا ، وليس سواه الان » .

فقالت « انتظر ، فعلنا المهم الان . » وابتسمت « لدي زائران أميركيان كبيران . وأنا أنتظرهما . تجلس أنت ومحفظة حذاء السائق، ونجلس نحن في صدر السيارة . وندبر أمر المحفظة الاخرى . وهكذا تستقل التكسي بلا مقابل » .

« ولكن كيف ؟ »

فربتت ذراعي « ما يهمك كيف ؟ سأوصلك الى النزل بنفسي ».

فقلت بصوت واه « كما تريدين » وتابعتها عيناي فيما هي تنسحب وراء مكاتب المطار .

وطالت غيبتها . فاعتراني يأس مدمر . كان المطار مقفرا عدا السيدة العجوز وهي تتشاغب بانتظار انتهاء الزمن . وثلاث فتيات في مكتب « مالييف » للطيران ، يثير فيهن البرح ضحكا متصاعدا .

ولكنها عادت اخيرا . رأيتها في آخر القاعة تشير الي . فهرولت وراءها حتى الساحة الخارجية . وتكلمت مع الضيفين . وسمعت الرجل يقول « لا بأس ، لا بأس » وهززت رأسي لهما ، فأومأ بالسلام بوجه جهم . وجلست جانب السائق ومحفظة في حضني . وطوال الطريق ، كانت صوفي تثرثر مرحبة ، ضاحكة ، ممثلة ، ولكن بحساب،

والرجل وزوجته يجيبان باقتضاب : مجرد لباقة . وعيناهما أخيرا في فندق بدا لي قصرا . وهرولت الى صدر السيارة وجلست مع صوفي. كنا الان بلا حرج . وهزلت صوفي مع السائق بطلاقة . وكان المساء مزهرا فطفحت قلوبنا بشرا وبدونا كاصدقاء قدامى .

قلت « لا بد أنك رائعة » .

فضحكت « يكفي هذا . قل لي ، أتقيم طويلا هنا ؟ » .

« الى صباح ما بعد الغد

« هكذا ! لن ترى الشيء الكثير . الك أحد هنا ؟ »

« لا . سأحاول أن أكسب الوقت »

فقالت « كان يسعدني أن أرشدك الى المهم . ولكني موظفة وزوجة وأم . »

بدأت صوفي تشرق في ذاتي . كنت أتشرب ألقها ، أتشرب بلا ارتواء .

وتابعت « نسجل اسمك أولا في الايبوس هنا . ونحصل على الاوراق الرسمية للاقامة . ونعود بعدها الى النزل . » فقلت « أية أوراق ؟ لماذا ؟ ألم يسو الامر ؟ » .

فقالت مربتة يدي « صبرا . مجرد اجراءات » .

وتوقف السائق . أنهينا الترتيبات بسرعة . وكان ثمة اخرون . وقالت فيما ثلاثتنا نتجه الى السيارة « أخيرا الى النزل . هل اطمأننت ؟ » .

وفي منعطف غير بعيد ترجلنا . كانت صوفي تدخن بنشوة.وقلت « لقد أسديت لي معروفا كبيرا . هل تسمحين بدعوتك للغداء غدا ؟ »

قالت « الغداء ، لا . ولكني أقبل دعوة عشاء . ومع زوجي ان سمحت . هذا لانك مغادر في القريب ، ولان .. » وصمتت . فترددت برهة ثم قلت « طيب . سأنتظرك . »

وصلنا الى الحديقة العامة . كان جو آب ربيعيا وعطر الزهور فواحا . ولكن الاهم ، أنه كان ربيعا في أعماقنا . كان الزوج سعيدا بامرأته ، معتزا بها . انها تكلم الاجنبي . ويبدو له الاخر مشارا . ويتضاحكان . فيسألها الزوج أن تترجم له ، فيضحك هو الاخر،وتطوق يده وسطها . كنا في الحديقة العامة : الليل مخملي وديع ، والنور خافت مثير . الناس على المقاعد الخشبية ازواجا ، والليل والحب يرقصان . فقلت « صوفي . انظري . انه لجميل أن يتمتع المرء بأيامه . » ولمح الزوج ايماءتي ، فأجابت صوفي « اني لا أحب هذا . لكل شيء مكانه . أنا من الريف ولا زالت جذوري هناك » . وابتسم الزوج وشدها اليه . فقالت « أتعرف ، نادرا ما يتاح لنا نجوال كهذا » .

في الجانب الاخر كانت اوركسترا شعبية تعزف الحانا وطنية . وفي قلب الحديقة ترتفع عواميد المياه الملونة . ونحن نسير ببطء ، تحدونا غبطة طاغية .

ووصلنا الى مقهى تحف به الزهور . وسألتني أن نجلس قليلا .

قالت « هل تحب الرقص ؟ »

قلت « أحيانا » .

« واذا فنشرب كأسا ونتحدث » .

فقلت « ودعوة العشاء ؟ » .

« دعك منه . في الخامسة تناولته مع زوجي . وأنت ضيفنا الان » .

« ولكن كيف ؟ » .

فضحكت وأخرجت سيكارة جديدة « دعك من العشاء ومن كيف. لقد أمطرتني هذه السيكارات الجيدة أمس » .

فربت ظاهر يدها « لا تذكري هذا . أتعلمين ؟ اني المس مشاعر مذهلة حقا » .

فقالت « لعله السفر . » فأجبتها « ربما ولادة النفس » .

ونظرت بي . فاجتاحني التلعثم « لا تغادر مخيلتي صورة الامس. السيدة العجوز وعنجهيتها ، وأنت قبالتها مشرقة كفجر . لماذا ؟ ».

فقالت وهي تمط الحروف « دع كل فراشة تغزل شرنقتها » .

وتحدثنا طويلا . كانت صوفي موظفة في مكتب السياحة الحكومي. والزوج ، وهو رسام فني ، يدرس ليلا ليحصل على شهادة الهندسة . قالت ان لديها طفلة الان . وان دخلها يجب أن يزداد . وأنها تسجل ساعات اضافية كثيرة . وهما ينتويان شراء شقة بالتقسيط « الحياة في غرفة لا تطاق . » قالت انها جاءت من الريف ، ولذلك لم تعتد المدينة المعقدة . وقد تزوجت صدفة من هذا البودابستي . وهما يجتمعان في الامسيات وأيام الاحاد . « أنت تعلم . علينا أن نعمل . وحين يهبط المساء ، نكون قد استهلكنا . ان حياتنا رتيبة . ولذلك حين نجتمع معا ، وفي سهرة كهذه ، يكون الامر غير عادي » .

فقلت « ولكنك موظفة في الايبوس ، وبوسعك أن تعيشي حياة سياح » .

فقالت « هنا السخرية . فماذا يعني أن تكون سائحا ؟ عليك أن تحصل على كل مباهج الحياة . وممن ؟ منا نحن . وكيف ؟ لكم أحس بنفسي خادمة جوعى في مطعم من الدرجة الاولى » .

فقلت « عفوا . ربما كنت واحدا من هؤلاء » .

فابتسمت « الى هنا فقط . ولم تقدم صوفي على طبق شهي لتهان » .

والتفتت الى زوجها . كان ينقل نظراته ساهما بين الراقصين . لا بد انه يسوح مع الافكار . حدثته صوفي قليلا ثم قالت « أتدري لم اهتممت بك ؟ سأخبرك الان : حين رأيتك في المطار كنت كسمكة حية تتلوى فوق الرمال . كانت تعابير وجهك تنبىء بكارثة . اني أعرف هذه المواقف . فانت خارج النطاق . ثم قلت انك سوري . فاستنشقت عبيرا من ماضي . لم يكن الامر كذلك تماما في البدء . ادركت ذلك لما ودعنا المسؤولين الاميركيين . فقفزت الى جانبي بلمحة ، وانبثقت فيك حيوية أعرفها . ضحكت ومرحت وداعبت ، وكان العالم طرفة بين يديك . انذاك ذكرتني بأيام تعيسة لي هنا . وقبلت فيما بعد دعوتك».

فقلت مدهشا « تعيسة ؟ »

فلم تجب لفترة . انهينا الشراب وران صمت .

وقالت بعد « هيا بنا الان . تخف وطأة الذكرى مع التجوال ، ويسلو زوجي . وسأريك بودابست من أعلى التل المائل أمامنا » .

واتجهنا ، خارج الحديقة ، في طريق صاعدة ملتوية ، محاطة باشجار كثيفة غناء . كان الضوء خافتا والنسيم مداعبا منعشا ،وجموع السياح تهذر وتغني وتعبث .

وقالت صوفي هامسة ، ذاهلة عن العالم الجذلان حولها « كانت اول ايامي في الايبوس وبودابست . وعملت مستقتلة كي أثبت قدمي. وعرفت بعيد أشهر طالبا عراقيا هنا ، كان يحمل في قلبه مرحا لا يوصف . ووجدت نفسي غارقة في دوامته . كان بورجوازيا بلا شك ، متحررا من عبودية العمل ، ذا روح هنية وشوق لكل شيء . وكنت انذاك متعبة صامدة لاثبت جدارتي ، فزرع جرثومة الامل والتوق في اعماقي . وعرفت الفرح . وادركت ان الانسان ليس حشرة ، ولو أرغم أحيانا على كونها . كان الاخر وراء النطاق » .

فقلت مواسيا « اعتذر لما قلت . كنت مرهقا وبدت العجوز مثيرة » .

فقالت « أنا لا الومك . أردت أن أقول : لن تستطيع أن تخضع العالم لهواك ، ما لم تعش عذابات الاخرين » .

صمت قليلا وقلت « لنعد الى العراقي . أرى أنك تزوجت السيد»

كنا نصعد في التل وصوفي تدخن وتلهث « لم يعد من داع للكلام . »

فقلت « ولكن الدائرة لم تغلق . والشاب من بني جلدتي . وكل ما حولنا يغري »

« حسنا » وتأبطت ذراع زوجها وحادثته قليلا « بعد أشهر صار

يرفس كيفما اتفق . وبقدر ما أغفر له بقدر ما يثور . وتعرى الحب ليصبح فعلا منعكسا فحسب . كان بغناه يشتري العالم . فاحترق بالحرمان مثلما احترق بالتخمة . وافترقنا . »

فقلت « وزوجك ؟ »

« هذا شيء اخر . فهو عملي مفرط . يقول اني معقدة شديدة الحساسية وأطلب المستحيل » .

وتكلم الزوج طويلا . كان يبدو مضطربا فقالت « يريد ان اترجم كل كلمة . يخشى سوءا ما . ولكني طمأنته . »

كنا الان على قمة الهضبة . وبودابست مبسوطة امامنا بحيرة ضياء مشرقة .

« والان ، هنا أمامك نصب أبطال التحرير ، وهو مركز سياحي هام . وهذه بودا ، وتلك بست . اذ هما مدينتان في البدء . وهذه الجسور تربط بينهما على امتداد ثلاثة كيلومترات . لا شك يستأهل المنظر المشقة . »

قلت « هذه المدينة ذات جمال عذري وحشي : بجبالها البرونزية، تتعشقها اشجار داكنة الخضرة ، وبدانوبها المهيب ، وبوجوه اناسها . انها مدينة لا تنسى » .

ونرجمت للزوج ، فامتلأ حبورا وضغط على كتفي ، وأمست صوفي أكثر صفاء وجعلت تدندن أغنيات .

وهبت النسائم أكثر برودة . وبدا السياح ينزلقون على المنحدر الهابط نحو المدينة .

قالت « هلم الان . عليك أن تستريح . وعلينا ان نعمل غدا . »

وأمسكت بيدي . أحسستها حارة فسألتها « ما بك ؟ ثم قالت « لا شيء . ربما بعض حرارة . لقد أثرت بي شجنا » .

فقلت « ولكن .. »

فهتفت « لا لا . دعنا نهبط راكضين »

وامسكت بيدينا كلينا . وانطلقنا مهرولين . ثم وقفت فجأة « ان قلبي ينبض بسرعة . لنكن عقلاء . » ثم قالت « أتسمع ما يقول ؟ يحذرني دائما من الافراط بالتدخين . ولكن ما العمل ؟ احس بحياة أخرى تتأكلني من الداخل ، ما العمل ؟ » .

كانت صوفي بجانبي . كنت أتلمسها في شراييني . جميعنا متعبون . وواصلنا السير حتى محطة الترام . وقلت « اودعكما هنا . واقطع المسافة الى النزل سيرا . »

فصاحت « أبدا . نوصلك حتى الباب ، فبوابة البناء مغلقة . ولن تفهم الحارسة لتأخرك سببا » .

فقلت « يستحيل ذلك . عليكما ان تستيقظا باكرا . ولتحجم الحارسة عن فهمي ، فلن يهم بعد الان . ان النوم هارب مني ، وعلي أن أسير طويلا . »

واذعن الزوجان بعد لأي . وقالت صوفي « اعتن بنفسك . فربما جمعتنا محطة ما في مدينة ما من الارض . »

فقلت « آمل ذلك . ويكون زوجك مهندسا وقلبك استرد صباه والعالم أكثر صفاء . »

كانت المدينة نائمة والليل باردا . ودعتهما أمام الترام . كانت عينا صوفي الخضراوان شديدتي الضياء . الترام يسير والعيون تتجه الى الوراء وتتلمع . وغاب الترام في منعطف غير بعيد ، فابتلعني صمت الشارع الواسع المهيب .

دمشق

منذر الفرا

السفير

البابا

آخر رواية للكاتب الشهير

موريس ويست

رواية الحرب القذرة في فيتنام ، كما يرويها سفير اميركي عين في سايغون وشاهد في اول يوم وصل فيه انتحار راهب بوذي .. وهو يقص هنا قصة تلك المنطقة التي تمزقها الخلافات السياسية والدينية والعسكرية وتدخل الولايات المتحدة الاميركية في هذا كله . ويعيش هذا السفير مأساة ضميرية اذ يكون عليه ان يختار بين رجل يحترمه (هو الرئيس كونغ) وبين طغمة من الجنرالات المتآمرين الذين تدعمهم المخابرات السرية الاميركية .. انه الصراع بين الاخلاق والانتهازية السياسية ، ولكنه كذلك مأساة شخصية يخرج منها السفير مجروحا في ضميره بحيث يهجر مهنته الدبلوماسية ليلتمس الخلاص الروحي بالقرب من راهب ياباني ..

وقد نجح موريس ويست ، وهو مؤلف رواية « محامي الشيطان » الشهيرة ، في تصوير حرب الفيتنام والدور الذي تلعبه فئة من الشخصيات المختلفة الغامضة ، وفي التعبير عن نزعة انسانية رائعة جعلت هذه الرواية في طليعة الروايات المعاصرة .

صدر هذا الشهر